

## إطلاة فضاء البيت

لا أعرف شخصاً إلا واستوطنه البيت كفكرة وواقع، واحتله كقلق وجودي، وأخذ منه مساحات شاسعة من حياته هي الأكثر غوراً وعمقاً، وكان البيت بالنسبة له هو سر الأسرار، ومكمn الحنين، ومخزن الذكريات.

وأنتَ كلما تأملتَ البيتَ الذي قضيتَ شطرَاً كبيراً من أيامك فيه، رأيتَ ما لا يمكن تخطيه بالإهمال أو عدم المبالاة؛ رأيتَ ما لا يستعاد من النظرات الأولى، وما لا يُزاح بمجرد الملمسة أو النبش؛ رأيتَ حياتك مثل الجبل الراسخ الذي ينهاه جزء كبير منه بفعل عوامل التعرية، وبالتالي فإن ما تحتاجه لإعادة الجزء المنهاه منه هو محاولة استعادة ذكرياتك من البيت ذاته الذي طمرها بين جدرانه ونوافذه وأبوابه، في غفلة منك.

فضاء البيت لا يسعه إلا أن تجاريـه، حتى يمكنك أن تتحدث إليه، تصغي إلى ما يقوله عنك، في طفولتك وصباك ثم شبابك. إنه كنز الذي لا يمكن إهداره، أو التخلـي عنه للآخرين. يحدث أن ننسى البيت في زحمة الحياة. ننسى أننا قضينا فيه أجمل لحظات حياتنا: مع الفرح، مع الألم، مع العائلة، التي نراها تكبر في أرجائـه. ويحدث أن نعود إليه بعد أن يأخذ الزمن من أجسادنا كل مأخذ، ويتركنا مثل الهشيم الذي لا آثار له.

يصدق في حياتك أن تدخل بيوت الأصدقاء، بيوت الأقارب، بيوت أناس عابرين لا تجمعهم بك سوى المصلحة، وكانت تظن حينئذ أن البيوت تتشابه، ليس في بنائها الهندسي، أو في سعة المبني أو ضيقـه، فهذا الأمر لا اختلاف عليه، بل تتشابه في كونها تضم بين أرجائـها حياة واحدة فقط، ورغم اختلاف البشر في طبيعتهم البيولوجية والنفسية والاجتماعية، واختلافـهم أيضاً في الكيفية التي يستهلكون بها هذه الحياة حتى انقضاء العمر، إلا أن الأمر يؤول في نهاية المطاف إلى حياة واحدة، هي حياة الإنسان نفسه.

لكن حينما تهرم سنينك، والأشياء من حولك أيضاً تكبر وتذوي، تتساءل بينك وبين نفسك: هل تتشابه البيوت حقاً؟ إذا كانت كذلك، فلماذا حين نذهب إلى البيت الذي ألفنا ونحن صغار اللعبـ بين غرفـه وممراته، لا نشعر بالشعور ذاته الآن وقد غادرنا مدارج الطفولة، حين كان فضاء البيت يتسع لأكثر من أسرة تسكنـه، ويراه الصغار قصرـاً منيفـاً، بينما في اللحظـة الراهنة يتمـلكـنا الاستغراب، وتساءـلـ: هل هذه البقعة المصغـرة ضمت حـياة العـديد من الأسر والعـوائل تارـكـين ذكريـاتـهم ومواجـعـهم وأحزـانـهم

وأفراهم تتمارع للبقاء في هذا الحيز الصغير؟

يا للغرابة! أنت لم تدرك إلا متأخراً أن البيوت تأخذ طابع حياة من يعيشون فيها. تعطيهم الاطمئنان والأمان لكنها تسلب منهم حياتهم السرية التي لا يمكن استرجاعها إلا ب بصيرة نافذة، قوامها المخيلة والكتابة.